المسألة الدولية

في البحر المتوسط

محمد رفعت بك

الطبعة الثانية
القاهرة
مطبعة المعارف
١٩٢٥

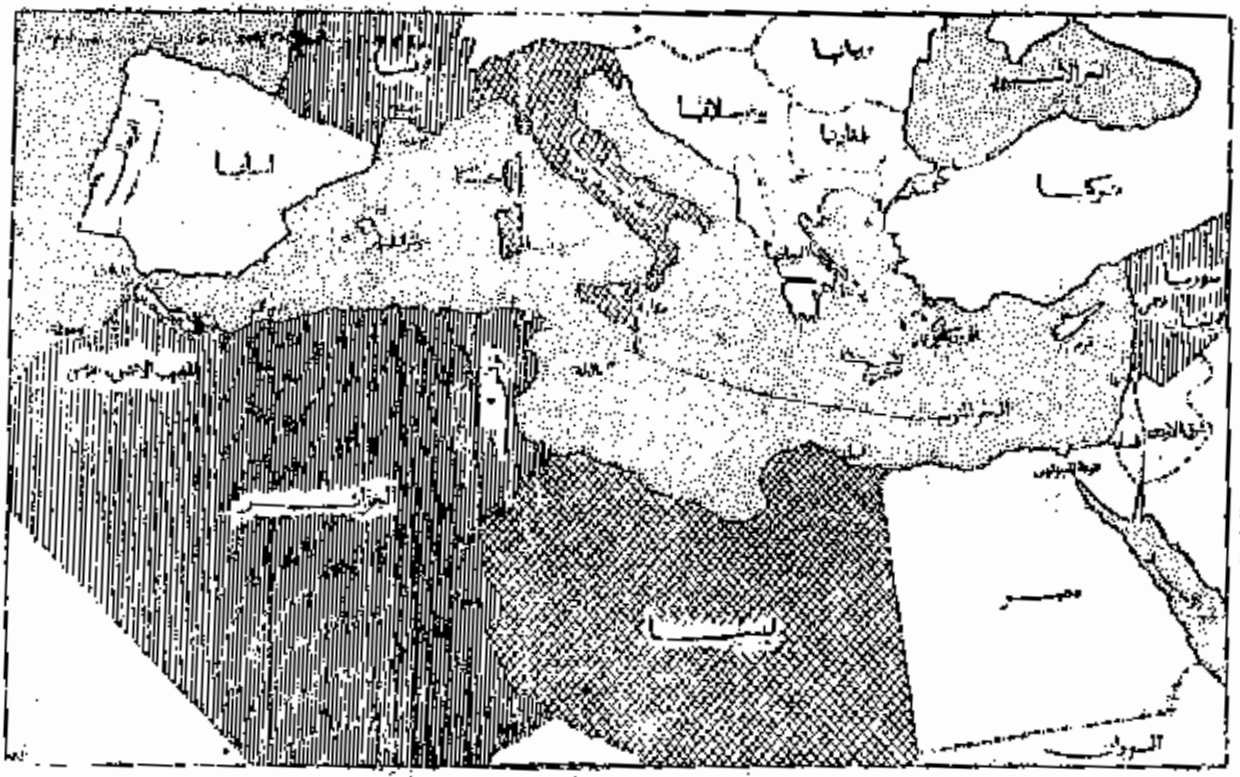

خريطة للبحر المتوسط وسواحله

السياسة الدولية

في البحر المتوسط[1]

يشاهد الباحث المحقق في السياسة الدولية في البحر المتوسط أربعة عوامل مهمة تتحكم في الموقف الحاضر بين الدول

(العامل الأول) : التسلح الذي تتسابق فيه الدول الكبرى والصغرى تسابقاً لم يشهد العالم مثله قبل الآن . واذا كان التاريخ يذكر عهد الفروسية في العصور الوسطى حين كان العرف يقضي على كل رجل حر نبيل بان يتسلح ويتعلم فنون السلاح والقتال فان عهدنا الحاضر سيذكره التاريخ بأنهُ العصر الذي تسلحت فيه الامم بجميع طبقاتها من قمة رأسها الى اخمص قدمها وان التسلح قد شمل كل شيء وذللت له العناصر جميعها من ارض وماء وهواء

اما اسباب هذه المغالاة في التسلح فكثيرة وتختلف بحسب احوال كل دولة ولكن هناك أسباب عامة تفسر ظاهرة التسلح الحديثة منها ضعف اداة السلم التي تمخضت عنها الحرب العظمى وهي عصبة الامم وضياع الثقة بمبدأ التضامن الدولي للتأمين ضد الحرب الذي يسمونهُ Collective Security فمعظم الدول التي كانت تؤمن بهذا المبدأ لم تر في اول الأمر ضرورة قصوى تدعوها الى زيادة التسلح فلما تفتحت العيون عن مشهد انهيار هذا المبدأ منذ سنتين حين وقفت دولة واحدة تتحدى الجميع زالت الغشاوة من فوق اعينهم وأخذ الجميع يتسلحون معتمدين على انفسهم

ومن هذه الأسباب ان العالم الحديث قد فقد الثقة فيما كانوا يسمونهُ بالمحالفات والمعاهدات فقد برهنت الحوادث قبل الحرب العظمى وفي اثنائها وبعدها الى الآن ان المعاهدات ماهي الا قصاصات من الورق يرمى بها في سلة المهملات اذا لم تخدم اغراض صاحبها في الوقت الذي يشاؤه وان القداسة التي كانت للعهود والمواثيق قديماً قد حلَّ بها الهوان كما حلَّ بكثير من النظم والتقاليد التي كان يعتز بها قديماً فجاء اتيار الحديث فجرفها ومزقها فيما مزق شذر مذر .

وأظن ان الاتجاه الحديث في العلاقات بين الدول سينحرف تدريجاً عن المحالفات والمعاهدات ويتحول الى اتفاقات وقتية تؤلف سريعاً لعلاج حالات معينة ثم تزول وتحل محلها اتفاقات أخرى

---

(١) خلاصة المحاضرة التي ألقيت بقاعة بورت بالجامعة الاميركية في ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٨

كما حصل بين دول البحر الأبيض المتوسط حين اشتدت وطأة حركة القراصنة المجهولة والقرصنة فعقدوا مؤتمر « نيون » في سبتمبر سنة ١٩٣٧ وكما حصل في موينخ في سبتمبر الماضي بين الدول الأربع لحل مشكلة تشيكوسلوفاكيا

لذلك كان من خطر الشأن بمكان عظيم ان تكون كل دولة مستعدة لأية مفاجأة حتى تحتاط جانبها وتعمل حسابها فيرتفع سعرها في السوق السياسي الدولي متى أزفت ساعة المساومة

ولهذا كانت المسابقة القائمة الآن بين الدول في التسلح وكان هذا النشاط العصبي الذي نلحظه كل يوم بل كل ساعة في العلاقات السياسية بين الدول

﴿ العامل الثاني ﴾ : اضطراب مياه البحر المتوسط — مضى وقت كان فيه البحر المتوسط قبلة أنظار السياح من مختلف أنحاء العالم لما حباه الطبيعة به من جو منعش وسماء صافية وشمس دافئة تبعث الحياة والنشوة في النفوس ومن ألوان زاهية ساحرة وفاكهة وعنب ونخيل وما أنشأه الانسان على سواحله من آثار خالدات ومعابد ومساجد وكنائس ومآذن وتماثيل هي آيات من الفن والذوق والجمال أبدعتها شعوب البحر المتوسط في مختلف العصور والحقبها المدنية الحديثة نماذج تحاكيها وتقتبس منها. لقد انطفأ فجأة جمال هذه المناظر وكأن عصا سحرية قد حولت هذه المناهج التي كانت ملتقى السياح من جميع أرجاء العالم ومبعث الجمال والشاعرية في نفوسهم الى مناظر حربية تسود سواحل البحر وتعج بها شواطئه فمن قواعد حربية وبحرية تنشأ من جديد الى أخرى قديمة تجدد وتعزز ومن دبابات تسد الطرق الى طائرات تملأ الجو بهديرها ومن مطارات ومصانع وتكنات الى مبان شاهقة ظاهرها خدمة العلم وباطنها تغذية الحرب

هذا الى المواصف السياسية التي تهتاجه بين حين وآخر فتجعل خطر الحرب والدمار قريب النزول وحينئذ تعتلي موجة الاضطراب هذه الشعوب الوادعة التي تفيأ منذ القدم ظلال أغصان الزيتون رمز السلام والسعادة في العالم

وليست هذه اول مرة تهب فيها على هذ البحر العواصف والاعاصير. فقد سار البحر الشعوب التي تسكن أرجاءه في رقيها وتدهورها فكان نصيبه تارة الهدوء والسلام وتارة تجتذب مياهه وسواحله التيارات السياسية والاجتماعية فتعرضه لأشد ما عرفه التاريخ من اخطار

ولا اظن اني بحاجة الى تعداد ما قام في البحر المتوسط من كفاح وحروب بين الشعوب في عصور التاريخ المختلفة ففي البحر المتوسط قام النزاع بين الفرس والاغريق ، وبين روما وقرطاجنة ، وبين الصليب والهلال في عهد الحروب الصليبية ، وظلت هذه الحروب تختفي وتظهر في البلاد المقدسة تارة وتارة في مصر واخرى في صقلية واسبانيا الى ان تسلط الهلال في شرق البحر وجنوبه وتسلطت المسيحية في الغرب والشمال

ثم جاءت حركة الاستكشافات الحديثة فكشف كولمبس عن القارة الجديدة وساح فاسكوده جاما حول رأس الرجاء الصالح الى الشرق فأحدث هذان الاستكشافان انقلاباً اقتصادياً هائلاً انتقل على أثره ميدان النشاط في الملاحة والتجارة الى المحيط الاطلسي واتجه مركز الثقل في العالم غرباً تاركاً البحر المتوسط ومدنه ودوله في ركود لم تكره سوى أعمال القرصنة التي انتشرت في القرنين السادس عشر والسابع عشر قرب سواحل الجزائر وما جاورها . وظلت شعوب البحر المتوسط تغط في نوم عميق استمر الى قرب نهاية القرن الثامن عشر حين أيقظها من سباتها دوي الثورة الفرنسية وصرخة نابليون في الشرق

ولقد بلغ من قلة اكتراث الدول الكبرى بشأن البحر المتوسط أن نابليون حين قام بحملته الشهيرة سنة ١٧٩٨ قاصداً مصر أمكنه أن يفلت بأسطوله من رقابة انجلترا سيدة البحار بالرغم ما ارصدته لمراقبته من سفن وقوات ذلك لأنها لم تدرك قصد نابليون من حملته البحرية وما فتئت الى انه يريد احتلال مصر . وأخيراً ظهر بحرية الانجليزية ان نابليون ترك مصر واخذ في طريقه اليها مالطة . عند ذلك تنبهت الدول الى مكانة البحر المتوسط في العصر الحديث وعادت الحركة والنشاط الى مياهه وأعقب الحركة اضطراب سرعان ما أدى الى معارك حربية عنيفة . ثم سكنت العواصف نوعاً واهتمت الدول في منتصف القرن التاسع عشر بالبحر المتوسط لغرض واحد هو منع روسيا من اختراق البوغازات والخروج منها جنوباً مهددة مصالح الدول الأخرى

واستمر الحال كذلك حتى بعد فتح قناة السويس واحتلال انجلترا مصر الى ان نمت قوة ايطاليا في اوائل القرن العشرين واخذت تصبو الى الاستعمار كغيرها من دول أوربا وكان أن تحركت في سنة ١٩١٠ للاستيلاء على طرابلس فاحتاجت مياه البحر المتوسط من جديد وهاهي العواصف السياسية تهب على البحر المتوسط من الشرق ومن الغرب ومن الوسط بسبب ايطاليا — في الشرق باستيلائها على الحبشة واهتمامها بطريق القناة . وفي الغرب بتدخلها الى جانب الوطنيين في اسبانيا . وفي الوسط بتهديدها تونس . وبفضل هذا النشاط الايطالي اصبح البحر المتوسط من أهم مواطن القلق والاضطراب في العالم في الوقت الحاضر

﴿ العامل الثالث ﴾ : تباين الشعوب المحكومة — تختلف الشعوب التي تسكن سواحل البحر المتوسط عن الشعوب الأخرى التي تحكمها الدول الاوربية في افريقيا وآسيا . فشعوب البحر المتوسط شعوب راقية لها قوانين وأديان الهية ولغات وأدبيات وكان لها في الماضي تاريخ مجيد ومدنيات اقتبست منها المدنية الحديثة نوراً وعرفاناً ولها آثار تعزيها وتحفزها الى العمل على استرداد مجدها الغابر لذلك كان الشعور القومي والوطني بين الشعوب المحكومة في البحر المتوسط قوياً وكان عمل الحاكم الاجنبي في اخضاع هذه الشعوب عملاً محفوفاً باشد الاخطار من اضطرابات

الى قلائل وثورات وحروب قد تقهر فيها الشعوب المحكومة فتسكن فترة من الزمن تستجم في أثنائها لتقوم ثانية تواصل جهادها في سبيل الاستقلال. لذلك ما كادت تعرف نقط الرئيس ولسون الاربع عشرة وتعلن الهدنة في نهاية الحرب العظمى حتى أخذت الشعوب المحكومة تسعى لتحقيق امانيها

وكان من جراء ظهور هذه الروح القومية بين شعوب البحر المتوسط ان اضطرت بريطانيا ثم فرنسا اخيراً الى تصحيح علاقتها مع الشعوب التي كانت تحت وصايتها او حمايتها بعقد محالفات يعترف فيها باستقلال هذه الشعوب وتحتفظ فيها الدولة الحاكمة بمزايا الدفاع عن ارضها وقت الحرب او عند خطر الحرب وذلك باستعمال طرقها وسككها الحديدية وموانيها ومطاراتها. وكانت المحالفة البريطانية العراقية اولى هذه المحالفات سنة ١٩٣١ ثم اعقبتها مصر سنة ١٩٣٦ وها هما سوريا ولبنان تعقدان مع فرنسا مثل هذه المحالفات. والشعوب الاخرى التي لا تزال تجاهد في سبيل استقلالها تطالب بعقد مثلها

وبالجملة ان الشعوب الاسلامية التي تسكن سواحل البحر المتوسط في حالة تطور جديد يصعب معه أن تستكين الى حكم او تدخل اجنبي

﴿ العامل الرابع ﴾ التيارات السياسية المتعارضة في البحر المتوسط — اقليم البحر الابيض المتوسط تعبير جغرافي صرف فليست هناك وحدة تجمع بين شعوبه سوى الوحدة الجغرافية اذ تشترك هذه الشعوب في مظاهر وصفات خاصة تميز جو هذه الاقاليم ونباتها وطبائع سكانها، كما تشترك في ان المعادن في هذه المنطقة قليلة وان موارد الخامات ليست كثيرة. وان محصولات هذه الاقاليم متشابهة. اما فيما عدا ذلك فالتباين بين هذه الشعوب عظيم

في الشرق والجنوب نجد الشعوب التي تعتنق الاسلام والتي تعمل جهدها للتخلص من نفوذ الاجنبي وفي الشمال والغرب نجد الدول المسيحية ذات الاثر الكبير في توجيه السياسة الدولية في البحر المتوسط. ومن هذه الدول ظهرت الآراء الجديدة التي كانت سبباً في اضطراب مياه هذا البحر. وتتلخص هذه الآراء في مبدأين هامين: الاول مبدأ التوسع والتسلط في الحكم وتنادي به ايطاليا؛ والثاني مبدأ الاحتفاظ بالحالة الحاضرة والديمقراطية في الحكم وتنادي به انكلترا وفرنسا. ويعمل الجانبان جهد طاقتهما في اكتساب الانصار فينحاز الى ايطاليا من دول البحر المتوسط المستقلة البانيا وحكومة فرنكو في اسبانيا وينحاز الى جانب بريطانيا وفرنسا اليونان وتركيا ويوغسلافيا ومصر وحكومة اسبانيا الجمهورية. والكفاح بين هذه الآراء قد بلغ منتهى الشدة وليس أدل على شدته مما نرى الآن في اسبانيا من استماتة الجانبين في سبيل النصر. وهو كفاح سيزداد على مرّ الايام وسيعيد الى الاذهان ما كان بين الصليب والهلال في العصور الوسطى

ولا يتطرق الى الذهن ان مجرد التباين في الآراء والمعتقدات بين الامم كاف لاثارة الحروب بل لا بد من اسباب اقتصادية او استراتيجية أي حربة تستند فيها هذه الآراء فتدفع بمعتنقيها الى الحرب على هذه الاسس قامت الحروب في الماضي وعليها ستقوم في المستقبل . وسنرى عند بحثنا في سياسة الدول المختلفة ما للعوامل الاقتصادية من أثر في توجيه سياستها غير ان هناك حقيقة ظاهرة وهي انهُ ما دامت الدول التوسعية مصممة على تنفيذ سياستها وما دامت الدول الديمقراطية لا تريد ان تمس الحالة الحاضرة بأي تغيير فان النزاع بين الفريقين لا بد ان يؤدي يوماً الى الحرب

قبرص السياسة البريطانية

ولنبحث الآن في سياسة الدول التي يهمها البحر المتوسط ولنكتفي في هذه المقالة بسياسة كل من بريطانيا وايطاليا

(بريطانيا) يقولون ان البحر المتوسط هو في منزلة الشريان للامبراطورية البريطانية والحق ان هذا التشبيه مبالغ فيه كثيراً لأنه اذا انقطع هذا الشريان فلن تموت الامبراطورية البريطانية لأن هناك طرقاً اخرى ربط انجلترا بمستعمراتها واهمها طريق رأس الرجاء الصالح الذي استخدمه الانجليز في اثناء الحرب العظمى خوفاً من الغواصات الالمانية التي كانت تملأ البحر المتوسط فأسفر استعماله عن نجاح تام. حقًّا ان السرعة عامل مهم في عالم التجارة والحركات العسكرية ولكن الوقت الذي يستغرقه طريق رأس الرجاء الصالح الآن لا يزيد كثيراً عما كان يستغرقه طريق البحر المتوسط وقناة السويس عند بدء استعمالها

ولكننا اذا انتقدنا فعلينا ان البحر المتوسط شريان للامبراطورية البريطانية فلا نستطيع ان نتكر انه طريق سلطاني مهم بتقريب المسافة بين بريطانيا واجزاء امبراطوريتها تقريباً تتوقف عليها سلامة هذه الأجزاء في وقت الحرب. فواسطة البحر المتوسط وقناة السويس تستطيع انجلترا ارسال جيوشها في زمن قريب الى نقط الضعف التي تتطلب المدد والمعونة

لذلك كان من الطبيعي ان تعمل انجلترا على المحافظة على هذا الطريق بانشاء محطات تكون لها بمنزلة نقط بوليس لتأمين الطريق ضد العابثين . ومن حسن حظها ان جاءت مواقع المحطات في نقط استراتيجية على درجة عظيمة من خطر الشأن فلها جبل طارق على الباب الغربي وعدن وجزيرة برين عند مدخل باب البحر الاحمر ولها عند مدخل البحر المتوسط من الشرق فلسطين وحليفتها مصر التي تملك قناة السويس . ولها وسط البحر جزيرة مالطة ثم لها قبرص

واستلاك انجلترا لكل من هذه المحطات علامة على تطور خاص في الموقف الدولي ويكفي ان نقول كلمة عن كل منها

﴿ جبل طارق ﴾ اما جبل طارق فقد احتلته انجلترا سنة ١٧١٣ بمقتضى معاهدة اترخت التي انتهت بها حرب الوراثة الاسبانية وكانت انجلترا قد خشيت انضمام قوات فرنسا واسبانيا ضدها بعد ان صار جفيد لويس الرابع عشر ملكاً على اسبانيا كذلك ارادت انجلترا ان يكون لها قاعدة بحرية بعد ان اتسع ملكها في الشرق على اثر إنشاء شركة الهند الشرقية

ويعتبر جبل طارق مثلاً مثيراً للانجليز يضربون به المثل في الثبات والمتانة ويبلغ عدد سكانه ٢١،٠٠٠ نسمة ، ١٥ تقريباً من الاسبان والايطاليين واليهود وهم جميعاً موالون لبريطانيا ولا خوف منهم في أي وقت . وأهم عيب في هذا الحصن أن أرضهُ جبلية ولا تصلح لاقامة المطارات ضماناً لمكانة انجلترا في جبل طارق راعت حكومتها عند توزيع مناطق النفوذ بين فرنسا وأسبانيا أن (سبتة) والأقليم المقابل لجبل طارق في بد اسبانيا وهي الدولة الضعيفة حتى لا تقوم قاعدة بحرية فرنسية تنافس جبل طارق وتعرقل سير الملاحة البريطانية في مضيقه

﴿مالطة﴾ لما إتجهت أنظار الانجليز الى مصر وطريق البر الى الشرق رأوا ضرورة أخذ مالطة من الفرنسيين بعد أن احتلها نابليون لتكون قاعدة بين جبل طارق ومصر وفعلاً لم يجد الانجليز صعوبة في احتلالها سنة ١٨٠٠ وقد تأيد احتلال انجلترا لها في مؤتمر فينا سنة ١٨١٥

ولقد سار الانجليز في حكم مالطة وفق خطتهم التقليدية فلم يتدخلوا في شئون الدين الكاثوليكي وهو السائد بين السكان كما لم يتدخلوا في استعمال اللغة الايطالية مع الانجليز . وبما أنهُ لا يفصل مالطة عن صقلية سوى ٧٠ ميلاً تقريباً فان أكثر ايطاليا في مالطة كان عظيماً ويكفي أن تكون الكنيسة ورجالها تابعين لايطاليا أو للبابا وأن تكون اللغة الايطالية لغة الثقافة بين الأهالي واللغة الرسمية في المحاكم مع اللغة الانجليزية لندرك مدى تغلغل النفوذ الايطالي في مالطة . ولم تكن انجلترا تهتم بذلك كثيراً حين كانت تربط انجلترا بايطاليا أواصر المودة القديمة ، ولكن لما تبيَّنت انجلترا ما تكنهُ ايطاليا من سياسة توسعية ظهرت آثارها للعيان في حرب الحبشة أعادت انجلترا النظر في سياستها في مالطة فأغلقت المدارس والاندية الايطالية ومنعت اللغة الايطالية من المحاكم واستبدلت بها اللغة المالطية وأبعدت كثيرين من المعروفين بميولهم الايطالية . واندمج الانجليز مع المالطيين وقبلوهم في أنديتهم وحفلاتهم فاذا أضفنا الى ذلك أن ثروة الجزيرة متوقفة على ما تنفقهُ بريطانيا على قواتها وما تنفقهُ الشركات الانجليزية على سفنها التي ترسو بها أدركنا بسهولة سبب ولاء المالطيين لانجلترا واستقرار الحالة في هذا الحصن البحري استقراراً يدعو الى الاطمئنان

وهناك رأي بأن مكانة مالطة كقاعدة بحرية منذ أن قوي سلاح الطيران قد أخذت تتناقص ويستدلون على ذلك بأن انجلترا لما حشدت أسطولها في أثناء الأزمة الحبشية وأزمة سبتمبر

الماضي فضّلت أن يكون ذلك في ميناء الاسكندرية بدلاً من مالطة حتى لا يتعرض الاسطول لهجوم سلاح الطيران الايطالي. ولكن هذا لا يؤثر في مكانة موقع مالطة الحربي وسط منطقة تشتبك فيها مصالح ايطاليا في صقلية وفرنسا في تونس وقد اهتمت بريطانيا أخيراً بتحصين الجزيرة وتعزيز حاميتها وانشاء مطار بها

أما قبرص فعهد انجلترا بحكمها حديث نوعاً. استأجرتها من تركيا سنة ١٨٧٨ عقب انتهاء مؤتمر برلين الذي وضع حداً لمطامع روسيا في تركيا وكانت قناة السويس قد افتتحت سنة ١٨٦٩ واشترى دزرائيلي أسهم الخديو سنة ١٨٧٥ فكان لا بد لانجلترا من قاعدة بحرية قريبة من القناة وتشرف منها على أملاك الدولة العثمانية في الشرق. والقبرصيون من صميم اليونان جنساً ولغةً وميولاً سياسية ويودّون لو أمكنهم الانضمام الى أمهم الكبرى بلاد الاغريق ويعزز مقام الانكليز بالجزيرة وجود أقلية من الاتراك يبلغ عددهم ٦١٠٠٠ وهم موالون للانكليز وعدد القبرصيين ٣١٠٤٠٠٠

ولم يكن في قبرص ما يدعو الى اهتمام انكلترا بها فاتبعت فيها أيضاً سياسة ترك الأمور تجري في أعنتها وتركت الدعوة ينشرها القساوسة الأغريق للعبرة سياسة الضم. الى اليونان فقامت الثورة سنة ١٩٣١ وهجم الثوار على بيت الحكومة فأحرقوه عند ذلك تنبهت انكلترا فاشتدت في حكمها وأخضعت الثوار وأبعدت الاساقفة المحرضين على الثورة ومنعت الأعلام الأغريقية من الظهور وقضت على حركة الدعاية لليونان. ثم جاءت الأزمة الحبشية فهدأت كثيراً من حماسة القبرصيين لحركة الانضمام الى اليونان إذ وجدوا أنهم في الحقيقة مخيرون لا بين انكلترا واليونان ولكن بين انكلترا وايطاليا. وليس بين ايطاليا واليونان حب مفقود أو غير مفقود فقد حرصت الكنيسة الارثوذكسية على تنشئة الشعب على كره ايطاليا كما أن الاغريق لم ينسوا ضرب ايطاليا جزيرة كورفو سنة ١٩٢٣ تهديداً لليونان. لذلك يكتفي القبرصيون الآن بالعلاقة الروحية وبالحب الافلاطوني بينهم وبين أمهم. وأما العلاقة السياسية فيختصون بها انكلترا لانها أقدر على ملء جيوبهم مالاً وقلوبهم طمأنينة

﴿ فلسطين ﴾ : والآن نصل الى صخرة تصطخب حولها مياه البحر المتوسط وتتكسر عليها أمواجه ألا وهي صخرة فلسطين فقد أصبحت فلسطين منذ الثورة الاخيرة التي قامت سنة ١٩٣٦ أضعف نقطة في جسم الامبراطورية البريطانية. والمدهش أن بريطانيا لا تناهض الفلسطينيين دفاعاً عن كيان الامبراطورية ولكن مدفوعة بعوامل تاريخية وانسانية نحو طائفة معينة

ويرجع تاريخ هذه المسألة الى سنة ١٩١٥ في أثناء الحرب العظمى إذ استغل الحلفاء شعور العرب بالجامعة العربية ضد الاتراك حلفاء الالمان واستمالوهم الى جانبهم فعقد السر هنري ماكماهون

معتمد انكلترا في مصر مع الملك حسين اتفاقاً سريًّا وعد فيه العرب بالاستقلال بعد الحرب. وفي سنة ١٩١٦ عقدت معاهدة سرية أيضاً بين انكلترا وفرنسا تعرف باسم منشئيها Sykes-Picot وبمقتضاها تأخذ انكلترا من أملاك تركيا في الشرق العراق بما فيه بغداد والبصرة وتأخذ فرنسا سوريا بما فيها اسكندرونة وعكا. وفي سنة ١٩١٧ أعلن وعد بلفور ويقضي بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين

ويلاحظ ان هذه الاتفاقات السرية والعلنية كانت مبهمة وغير محدودة المعنى ففي الاتفاق مع العرب لم تبيَّن حدود الدولة العربية المستقلة كما أن الاتفاق مع فرنسا على ان تأخذ سورية لم يكن ليتفق مع الوعد بانشاء دولة عربية مستقلة

اما وعد بلفور فلم يبين فيه المساحة التي سيشغلها الوطن القومي ولا عدد اليهود الذي يسمح بهجرته الى هذا الوطن

وقد كان من رأي اليهود في ذلك الوقت ان يأخذوا تصريحاً بأن تكون فلسطين وطناً قوميًّا فلم يخوزوا الا بانشاء وطن قومي في فلسطين والفرق بين المعنيين ظاهر. ولو ان الحلفاء بروا بوعدهم للعرب فأقاموا دولة عربية واحدة او اتحاداً عربيًّا من سوريا وفلسطين وشرق الأردن لما قامت مشكلة الصهيونيين الحالية لأن اليهود الذين عاشوا مع العرب كأصدقاء قروناً طويلة كانوا يستطيعون ان يوزعوا انفسهم في جهات عدة من الدول الجديدة بدلاً من حصرهم في هذا الاقليم الضيق من الأرض

ويظهر ان الانكليز ارادوا ان يتخلصوا من الفلسطينيين واليهود مرة واحدة فوضعوهما في هذا المأزق كما كان يفعل قضاة العصور الوسطى اذا ارادوا عقاب النساء المشاغبات فكانوا يحجزون كل اثنتين في حجرة واحدة فاما ان تصطلحا واما ان تمزق إحداهما شعور الأخرى!

وتواجه انكلترا الآن في فلسطين مشكلة من أعقد المشكلات اذ كان بهم انكلترا ارضاء العالم الاسلامي بانصاف اهل فلسطين فكذلك يهمها ألا تغضب ملوك المال من اليهود في اوربا واميركا

والخلاصة ان مركز بريطانيا في البحر المتوسط لا خوف عليه ما دامت اسبانيا محالفتها الحاضرة ولا يضعف من مركز بريطانيا سوى مشكلة فلسطين ولذا يبدو ان حلها سيكون سريعاً

اما ما يقول بعضهم من ان بريطانيا بالمحافظة على نفوذها وممتلكاتها في البحر المتوسط تعرض نفسها لهجوم منافسيها وتحمل نفقات باهظة هي اولى بصرفها في جهات اخرى ولذلك فهم ينصحون بانسحاب بريطانيا من البحر المتوسط فقول لا قيمة له

١ — لأن بريطانيا اذا تركت البحر المتوسط رغبة في صون السلم فانها بذلك تمهد الطريق فوراً لاحلال دولة اخرى محلها وبذلك يختل التوازن الدولي وتقوم الحرب التي تعمل على تفاديها

٢ — اذا تركت انكلترا البحر المتوسط تركها حلفاؤها فيه وصعب عليها ايجاد غيرهم اذا قامت الحرب

٣ — ان اقتصار انجلترا على تملكاتها فيما وراء البحار من غير ان يكون لها في البحر المتوسط مصالح حيوية يحولها في الحال الى دولة ساحلية من الدرجة الثانية في المقام وتصبح اشبه بهولندا في اوربا وهي تملك مستعمرات كثيرة وراء البحار

٤ — ولا ننسى ان طريق البحر المتوسط يمر على سواحل دول متعددة واستمرار الملاحة والتجارة من هذا الطريق يكون في منزلة اعلان للعالم بعظم نفوذها ورواج بضائعها

٥ — وأخيراً لا ننسى ان بريطانيا تعتبر نفسها دولة عالمية وقد اصبح البحر المتوسط بعد ان اعلنت اميركا مبدأ عزلتها السياسية عن القارة وانبعث سياسة الحواجز الجركية في الداخل من اهم المراكز السياسية والاقتصادية في العالم فاذا زالت بريطانيا عن نفوذها في البحر المتوسط فكأنها زالت عن مكانتها الممتازة بين الدول

اتجاه السياسة الايطالية

تنتقل الآن الى سياسة ايطاليا في البحر المتوسط وهنا نرى صيحة ايطاليا التي لا تنقطع فهي تنادي بكل صوتها ان البحر المتوسط هو بحرها وعليه يطلقون في كتبهم ومقالاتهم وكلامهم Mare Nostrum اي بحرنا ويستمدون في ذلك على ان سواحل ايطاليا تغمرها مياه البحر المتوسط . ولكن في هذه النسبة مبالغة كما قلنا في حكاية الشريان بالقياس الى الامبراطورية البريطانية

حقاً ان لايطاليا سواحل يبلغ طولها ٢٥٠٠ ميل مغمورة بالبحر وان الرومان القدماء سيطروا على البحر المتوسط وأقاموا على سواحله دولة رومانية استمرت عدة قرون حتى انك لتعثر في اي ناحية من سواحل البحر فلا بد انك واجد اثراً رومانياً

وحقيقة ان الخلق الايطالي ومستوى معيشة الايطالي وقدرته على الاندماج في شعوب البحر المتوسط تقربه الى نفوس هذه الشعوب وتميزه عن اهل الدول الكبرى الاخرى ، ولكن قولهم «بحرنا» فيه مس لشعور دولة صديقة كمصر يمتد ساحلها من السلوم الى جنوبي سواكن اذ البحر الاحمر ليس الا امتداداً للبحر المتوسط ، ولمصر في البحر المتوسط والبحر الأحمر تاريخ مجيد قديماً وحديثاً — قديماً حين كانت مصر ترسل اساطيلها في عهد الملكة حتشبسوت تعثر عباب البحر الى بلاد «بنت» وهي ارض الصومال التي تحتلها ايطاليا الآن — وحديثاً حين كانت مصر في عهد محمد علي ثالث دولة بحرية في البحر المتوسط بعد انجلترا وفرنسا وحين كانت تحكم سوريا ولبنان وفلسطين وبلاد العرب وجزءاً من آسيا الصغرى وكريد

وحين احتلت جنودها في عهد الخديو إسماعيل مصوع وهرر وزيلع وبربرة ووصلت منارتها السبع على ساحل البحر الاحمر جنوباً الى بربره

واذا كان الايطالي يمتاز على الآخرين بأنه أقرب الى قلوب أهالي البحر الابيض من غيره فأنا من هذه الشعوب نفسها لحماً ودماً ودينها دين الاكثرية وثقافتنا قد نفذت الى قلوب هذه الشعوب قبل أن تنفذ الكتب الايطالية الى حوانيتهم

تقول ايطاليا أنها في البحر وسط الطريق وهذا حق اذا اعتبرنا البحر المتوسط وحده ولكننا اذا اعتبرنا البحر الاحمر امتداداً للبحر المتوسط فتكون مصر لا ايطاليا هي القابضة على أوسط مكان في البحر وليس أدل على مكانها المتوسط من وجودها في مفترق الطرق بين القارات الثلاث ويكفي أن تكون مصر هي المالكة لقناة السويس التي هي مصدر الحياة والنشاط السياسي والتجاري لهذا البحر لتقول ملء فيها أن البحر المتوسط لها قبل أن يكون لغيرها

كانت ايطاليا تقول منذ سنتين مثنا أن البحر المتوسط يجب أن يكون بحيرة ايطالية ولكنها الآن بعد أن ضمت الحبشة فقد أصبح البحر لها كما هو لا تكفتا وفرنسا طريق مواصلات قبل أن يكون بحيرة. ولهذا اتجهت أنظارها أخيراً الى التدخل في شؤون قناة السويس وغيره من المسائل الخاصة بالمواصلات

والحقيقة أن ايطاليا من حيث موقعها في البحر المتوسط في موقع لا تحسد عليه اللهم إلا اذا كانت السيادة البحرية لها فهي كما في بلاد البحر المتوسط تحتاج الى كثير من المعادن والخامات الاولية ولا يمكنها الاعتماد كلية على منتجات البلاد القريبة منها كالمانيا مثلاً بل لا بد لها من استيراد أشياء كثيرة مثل القمح وزيت البترول والقطن والمطاط والبن والتصدير. وهذه الاشياء ترد اليها اما عن طريق القناة واما عن طريق جبل طارق وتبلغ نسبة ما يرد الى ايطاليا من خارج البحر المتوسط ٧٥٪ من وارداتها ونسبة ما يرد من ذلك عن طريق جبل طارق ٧٠٪ وعن طريق السويس ١٧٪ وعن طريق الدردنيل ١٣٪ لذلك تضطر ايطاليا الى أن تولي وجهها شرقاً نحو السويس وغرباً نحو جبل طارق والمفتاحان بيد بريطانيا أو حلفائها ولأجل ان تكون ايطاليا على استعداد وجب أن تكون لها قوة دولتين بحريتين حتى تستطيع مراقبة الموقعين من الشرق والغرب وهيهات أن يتم لها ذلك لاسيما وأن التسلح في بريطانيا وفرنسا جار على قدم وساق

وكل ما تستطيعه ايطاليا في مركزها الحالي اذا جاءت ساعة الخطر ان تعرقل حركة المرور في البحر المتوسط وذلك بالاكثار من السفن السريعة الخفيفة والغواصات التي ثبت في الحرب العظمى أنها تستطيع ان تعوق الملاحة في البحر المتوسط ولكن سلاح الغواصات تستطيع استعماله أية دولة ولو لم يكن لها سواحل على البحر المتوسط بدليل ما قامت به الغواصات الالمانية

في هذا البحر في أثناء الحرب . كذلك تستطيع إيطاليا الضغط على انجلترا وحليفتها مصر غرباً من طريق ليبيا ومن الجنوب الشرقي من طريق الحبشة وأرتريه والصومال وبذلك تكون مصر والسودان مهددتين بعدو واحد من جهتين مختلفتين وهذا يفسر اهتمام إيطاليا بحشد قواتها في ليبيا والحبشة في اثناء الأزمات . يقابل ذلك انهُ اذا اعلنت بريطانيا الحصر البحري على ايطاليا تعذر عليها استيراد ما تحتاج اليه من الخارج كما يتعذر عليها الدفاع عن مستعمراتها خارج البحر المتوسط بدليل ان المانيا لم تستطع الاحتفاظ بمستعمراتها امام قوة انجلترا البحرية

لذلك كان اهتمام ايطاليا بمساعدة القوات الوطنية في اسبانيا اذ هذه هي الطريقة الوحيدة التي تستطيع بها ايطاليا ان تنفذ الى خارج البحر المتوسط ما دامت القناة وجبل طارق في ايدي الآخرين . وتستند قوة ايطاليا في البحر المتوسط الى الدعامات الآتية :

١ — ﴿ المانيا ﴾ : وهي مرتبطة منذ سنة ١٩٣٧ مع ايطاليا بمعاهدة دفاعية لمدة عشرين سنة ولايطاليا في المانيا رؤوس اموال كبيرة معظمها في السكك الحديدية والطرق والاشغال العامة وهنا خبراء في المصالح الحكومية

ومكانة المانيا من الوجهة الحربية ان مرتفعاتها تتحكم في بوغاز الترتو مفتاح البحر الادرياتي الى البحر المتوسط وبوغاز الترتو الذي يفصل ايطاليا عن البلقان هو المنفذ الوحيد ليوغوسلافيا الى البحر المتوسط وعرضهُ ٤٥ ميلاً . ولالبانيا ميناءان حربيان فالونا ودورازو . وفضلاً عن ذلك فقد كشفت اخيراً آبار زيت البترول تستغلها ايطاليا وتنتج مقدار ٣٠٠٫٠٠٠ طن سنوياً وهو ١٠ ٪ مما تستهلكهُ ايطاليا سنوياً من البترول . وتتبع البانيا سياسة موالية لايطاليا فهي لم تشترك في ميثاق البلقان الذي يجمع بين تركيا ورومانيا واليونان ويوغوسلافيا كما انها لم تشترك في تنفيذ العقوبات الاقتصادية ضد ايطاليا في اثناء ازمة الحبشة

٢ — ﴿ جزيرة بنتلاريا ﴾ : وقد ظهر ما لهذه الجزيرة من الشأن الكبير في السنوات الثلاث الأخيرة إذ تقع هذه الجزيرة في موقع استراتيجي هام بين صقلية وتونس ويبلغ ارتفاع صخورها ٢٥٠٠ قدم وبالجزيرة بحيرة صغيرة تصلح لاقامة قاعدة جوية للطائرات البحرية وقد سارعت إيطاليا في تحصين هذه الجزيرة فأصبحت من أهم قواعدها البحرية في البحر المتوسط . وقد حظرت مرور الطائرات من فوقها

٣ — ﴿ جزيرة رودس وجزر الدودكانز ﴾ : ومركز إيطاليا في هذه الجزر مهدد من ناحية تركيا التي كانت تملك هذه الجزر ولا تزال ترنو اليها لقربها من سواحل آسيا الصغرى ولوجود أقلية تركية في رودس . وكذلك يميل سكان هذه الجزر من الاغريق الى الانضمام الى امهم الكبرى اليونان . وأهمية هذه الجزر وباقي جزر الأرخبيل في الحرب أنها تصلح ان

تكون مخابئ للقواصات والمدمرات وغيرها من السفن الصغيرة السريعة

٤ — (ليبيا) وقد اصبح الآن مركز ايطاليا فيها آمناً وقوياً بعد ان كان مهدداً في الداخل بقيام السنوسيين ضدهم. وقد انشأوا اخيراً طريقاً ممهداً قرب الساحل من حدود تونس الى حدود مصر يبلغ طوله ١٢٠٠ ميل كما انهم اقاموا اسلاكاً شائكة مزدوجة على الحدود الشرقية يبلغ طولها ٢٢٠ ميلاً ويحاول الايطاليون الآن بمختلف الطرق كسب قلوب الأهالي

***

وليس لايطاليا خطة سياسية معينة تنتهجها فليس بينها وبين احدى الدول عداوة مقيمة كما انهُ ليست لها صداقة مقيمة مع احداها رغم قيام محور برلين روما. ولا يزال موسوليني بعد فتح الحبشة متردداً بين رأيين الاول يقول بضرورة التفاهم مع الديمقراطيات الكبرى حفظاً للامبراطورية الايطالية الناشئة التي لا تستطيع البقاء اذا قامت الحرب وكانت ايطاليا في غير صف بريطانيا وفرنسا. وحجة انصار هذا الرأي ما يتوجسونه من اثر زيادة قوة المانيا عند حدود ايطاليا الشمالية بعد ضم النمسا والسوديت وبعد تغلغلها سياسيًّا وتجاريًّا في وسط اوربا وشرقها. والرأي الثاني يقول بضرورة استغلال الفرص والمحافظة على محور برلين روما وخلق الاهداف والغايات امام الشعب الايطالي حتى لا تخمد حماستهُ وتضعف رسالة الفاشستية

ولايطاليا على سواحل البحر المتوسط أكثر من ٢٠٠٫٠٠٠ ايطالي يسكنون ارجاءها المختلفة من هؤلاء نحو ٩٠٫٠٠٠ في تونس و ٦٠٫٠٠٠ في مصر ومعظم هؤلاء من العمال والميكانيكيين واصحاب المطاعم والفنادق وليست لهم مصالح حقيقية ذات قيمة اذا قوبلوا بالفرنسيين أو البريطانيين ولكن ايطاليا تعنى برجالها الآن أشد عناية وتعمل على تدريبهم وتزويدهم بمختلف المساعدات من سياحات الى ايطاليا ودخول في جامعاتها الى إنشاء الأندية وإقامة المباني لهم

وقد ارتفع ذكر إيطاليا أخيراً وصارت لها مكانة بين الأهالي تداني مكانة بريطانيا وفرنسا لا بسبب الدعاية التي ينشرونها في الصحف ولا بواسطة الراديو ولا بسبب المدارس والجامعات التي يفتحون أبوابها لمن يريد ولكن لسبب واحد له أثره الفعال في نفوس عامة الناس وهو النصر الذي أحرزتهُ في حرب الحبشة والموقف الذي وقفتهُ إيطاليا وتحدت به اجماع الدول تقريباً ضدها

وهناك سبب معنوي آخر له قيمته بين الشعوب التي تعمل على التوسع وهو روح الثقة والايمان التي تملأ الشعب الايطالي الآن اينما وجد فالجميع لهم قبلة واحدة هي دولة روما ولهم دين وطني واحد هو الفاشستية ورسول واحد يقودهم الى النصر ويكاد في نظرهم يكون معصوماً من الخطأ